

• علم الكلام

العلوم العقلية ، منها الفلسفة وعلم الكلام. والفلسفة كلمة يونانية معناها : محب الحكمة .
فكلمة (فيلوس) هو (محب) أو صديق و (سوفيا) تعني (الحكمة).
والذي يقوم بالفلسفة يسمى فيلسوف ، وجمعه فلاسفة . وحدد الفلاسفة أموراً يهتدى بها
إلى التمييز بين الحق والباطل وأطلقوا عليه اسم المنطق.
والحكمة قولية وفعلية . أما الحكمة القولية ، وهي العقلية أيضاً ، فهي كل ما يعقله
العاقل بالجد والتفكير . وما يجري مجراه مثل الاستقراء . أما الحكمة الفعلية فهي كل ما يفعله
الحكيم ليصل لغايته وهي الكمال.
والحقيقة ان الفلاسفة القدماء والمحدثين لم يتفقوا على تعريف محدد لمعنى الفلسفة .
فيجعلها البعض شيئاً خارجاً مغايراً للشعور العقلي ، بينما يرى آخرون إنها عملية إدراك الأشياء
غير المرئية.
وتعظيماً لأمر الفلسفة عند اليونان فقد كتبت بعض مؤلفاتهم في الفلسفة بالذهب وسميت
بالذهبيات.

وقد ظهر علم جديد عند فلاسفة المسلمين وفقهائهم ، ساعد على شرح بعض العقائد وإثباتها ، وعرف هذا العلم في تاريخ الفلسفة الإسلامية بـ (علم الكلام) . والمنطق وعلم الكلام مترادفان .

ويهدف علم الكلام إلى الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المخالفين لاعتقادات المسلمين ، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. وأخذ متكلمي الإسلام بما لا يخالف الشرع وخطوا به الكلام لشدة الاحتياج إليه فصار كلامهم حكمة إسلامية.

فعلم الكلام : يقتدر منه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبهة. وعلم الكلام سمي بذلك إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة وإما لأن أبوابه عنونت في البداية بـ : الكلام في كذا ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التشاجر فغلب عليه ، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في الشرعيات مع الخصم.

وهذا ما أنتهجه أبو الحسن الأشعري في كتابه الابانة.

ومن الواضح وفق ما سبق من تعاريف أن علم الكلام يأخذ بمنهج البحث والنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لإثبات العقائد الدينية ، لذلك تكون وظيفة علم الكلام دفع الشبهة ورد الخصوم والاحتجاج العقلي على صحة العقائد الإيمانية كما يراها متكلمو المسلمين.

ويعد علم الكلام الأحدث من بين فروع العلوم الإسلامية الأخرى كالفقه والحديث والتفسير . وقد بدأ وأكمل تطوره في مرحلة لاحقه من نشأة وتطور العلوم الثلاثة الأخرى . ويسمى التحقيق في علم الكلام (التكلم) والمحقق فيه يسمى (المتكلم) و أحياناً (الكلامي) . وكان القرن الرابع للهجرة العصر الذهبي لعلم الكلام الإسلامي ، أو علم العقائد ، وهو عصر تحرره من الفقه ، بعد أن بقي حتى ذلك الحين تابعاً له .

ومثل المعتزلة الفلسفة الإسلامية ، حين لجأوا إليها درساً وبحثاً واستخدموها في الرد على خصوم المسلمين بادئ أمرهم . إلا أن الفلسفة أحدثت انقلاباً خطيراً في حياتهم وتفكيرهم . لأنهم أحبوها وعظموا فلاسفة اليونان ، وانصرفوا إلى المسائل الفلسفية البحتة. حتى رموهم خصومهم وخاصة أهل الحديث بالكفر والزندقة .

عاش المعتزلة ومعهم الفلسفة الإسلامية أزهى عصورها في أيام الخلفاء العباسيين الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق (198 - 232 هـ / 813 - 846 م) ، ساد فيها فكر الاعتزال واستبد المعتزلة بالدولة وشؤونها وهم في ذروة قوتهم ، فما أن مات الواثق سنة 232 هـ / 846 م حتى زالت قوتهم ودالت دولتهم .

وبعد أن تولى المتوكل الخلافة (232 - 247 هـ / 847 - 861 م) انهار سريعاً ما بناه المعتزلة خلال قرن من الزمن ، فقد قام المتوكل بمحاولة محو آثار الاعتزال وأعتبر فكراً

إلحادياً. وخفت صوت المعتزلة أيام المتوكل والخلفاء العباسيين من بعده ، وأنتشر مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) وهو مذهب أهل الحديث ، وتشدد أتباعه مع المعتزلة ، بتأييد من الخلافة العباسية ، وشمل ذلك منع تداول كتب الفلسفة وتحريم استساخها من قبل الخلافة. وبعد ان ضعف المعتزلة تحول الصراع إلى خلاف بين المعتزلة أنفسهم وخاصة بين مدرستي بغداد والبصرة ، فأخذوا يكفرون بعضهم بعضاً ، وازدادت عوامل الخلاف بين بعضهم البعض.

وجاءت الضربة القوية للمعتزلة ، من أحد أبرز رجالاتهم وهو أبو الحسن الأشعري (ت 324 هـ) الذي كان تلميذاً لأبي علي الجبائي ، وربباً له. فكان الأشعري الخبير بمواطن الضعف والخلل في فكرهم. فكانت هذه الضربة قاصمة للبناء الفكري للمعتزلة .

إلا أن الفلسفة وعلم الكلام والاعتزال أنتعش وظهر من جديد بسيطرة البويهيين على العراق وبلاد فارس. وساعد على ذلك أن البويهيين كانوا يميلون إلى المعتزلة . وقد تأثرت المدرسة الفكرية الشيعية بالمنهج الكلامي لمدرسة بغداد الاعتزالية ، ذات الاستدلال العقلي في العقائد . فقد تأثر ابن بابويه القمي (ت381 هـ) بذلك المنهج ، ولاسيما في كتابه ((علل الشرائع)) ، فاتبع طريقة المعتزلة في البحث عن علل كل شيء . وكذلك تأثر الشيخ المفيد (ت 413 هـ) بالمنهج نفسه ولا سيما في كتابه ((أوائل المقالات)) .

وكان ذروة ما وصل إليه المعتزلة من قوة في العصر البويهي على عهد وزارة صاحب

بن عباد (ت 385 هـ / 995 م) حيث كان معتزلياً زدياً .

وكانت بين الزيدية والاعتزال أسساً للثقافة . فلقد كانت الزيدية أكثر فرق الشيعة تأثراً

بالمناهج العقلية الاستدلالية للمعتزلة . فتنبى أمراء بنو بويه الاعتزال . إلا أن الاعتزال ظل عليلاً

في الانتشار بين عامة المسلمين وبقي مقصوراً على نخبة قليلة من متكلمي الإسلام .

والواقع ان المعتزلة باستعانتهم ببني بويه ، استعادوا شيئاً من قوتهم . فقد كانت لهم

حلقات نقاشية يُدرسون فيها أصولهم وقواعدهم دون معارضه .

لقد كان صاحب بن عباد سنداً قوياً للمعتزلة . فاستعادوا في ظل وزارته شيئاً غير قليل

من مجدهم وهيبته . فعندما آلت إليه الوزارة واجتمعت في يده السلطة ، استخدمها في نصرته

الاعتزال ونشره . فجمع حوله المعتزلة من كل مكان ، وأسند إليهم المناصب العالية ، وأغدق

عليهم الأموال الجزيلة ، فكانت الري للمعتزلة في عهده كما كانت بغداد في عهد المأمون

والمعتصم وأحمد بن أبي دؤاد . إلا أن عددهم كان أقل بكثير ، وتأثيرهم محدود في الحكم

والسياسة . فظلوا في إطار حلقات نقاشية لنخب قليلة في مجالس الأمراء والوزراء البويهيين .

وفي ظل هذه الأجواء المشجعة للاعتزال وأهله ، ظهر في العصر البويهي عدد من علماء الاعتزال ، استطاعوا أن يعيدوا شيئاً من هيبة الاعتزال ورونقه . وجمع بعضهم تراث المعتزلة الفكري والذي لم يكن قد جمع حتى ذلك العصر .

ومن علماء المعتزلة في العصر البويهي : الشيخ المرشد أبو عبد الله الحسين بن علي البصري (ت 367 هـ) . أخذ الاعتزال عن أبي علي الخلال (ت بعد سنة 321 هـ) ، ثم عن أبي هاشم الجبائي (ت 321 هـ) . لكنه فاق أقرانه بجده واجتهاده ، وكان عضد الدولة البويهي يغلو في تعظيمه ، حيث رسم الأمير البويهي أن يحمل إلى أبي عبد الله سلة من طعام خاصته.

ومنهم يحيى بن محمد العلوي (ت 375 هـ) وكان امامياً ، له مرتبة في العلم ، توفي بجرجان في حضرة صاحب بن عباد ، وللصاحب تعزية في ذلك أرسلها إلى أولاد يحيى ، وهي في غاية الحسن تدل على عظم فضله وعلو منزلته.